

للوحدة طريق واحدة

في منتصف القرن الماضي كانت المانيا لا تزال مجزأة، وكان موضوع الوحدة يفرق بين شمالها وجنوبها، لأن الشمال كان يضم دولة بروسيا الكثيفة العدد ذات المجتمع الاقطاعي العسكري الرجعي، بينما كان الجنوب يضم دويلات تفتت فيها مبادئ الثورة الفرنسية وظهرت الافكار الاشتراكية، لذلك كانت تخشى الوحدة لأن الوحدة تعني بالنسبة اليها خضوعاً للرجعية البروسية، وضباع حرياتهما الديمقراطية وآمالها في التقدم الاجتماعي. ولكن الشعور القومي كان أقوى من هذه المخاوف، وتحققت الوحدة الالمانية على يد بسمارك رجل بروسيا وأقوى ممثل للرجعية الالمانية السياسية والاجتماعية. وتحدد من ذلك الحين مصير المانيا في اتجاه السيطرة ومعاداة الحرية في الداخل والخارج معاً.

واما وضع الاقطار العربية فمختلف عن ذلك اختلافاً جوهرياً. وأهم سبب لذلك هو وجود الاستعمار وتسلطه على أكثر هذه الاقطار. فالرجعية العربية هي ايضاً تمنى لو تستطيع ان تجمع كل هذه الاقطار تحت سيطرتها واستغلالها، ولكن وجود الاستعمار وحرصه على ابقاء التجزئة العربية من جهة، وكون الشعب العربي هو المادة الاساسية لمقاومة الاستعمار من جهة أخرى، كل هذا يحول بين الرجعية العربية وبين ان تقوم بالدور الذي اضطلعت به الرجعية الالمانية، ويفرض عليها اما ان تتخلى عن جميع امتيازاتها كطبقة رجعية واما ان تعادي الوحدة وتستमित في الدفاع عن التجزئة. ولقد كان ممكناً قبل عشر أو عشرين من السنين، حين كان نضال العرب ضد الاستعمار ضعيفاً مجزئاً، وحين كان الوعي الاجتماعي غامضاً

مبتدئاً، أن يسود موقف الرجعية من الوحدة بعض الالتباس والتضليل، فتتظاهر بتبني دعوتها وتضع لها المشروعات الخيالية. اما اليوم وقد بلغ النضال العربي التحرري هذا المستوى الذي ظهر في مصر والجزائر، يرافقه ويمتزج به وعي اجتماعي تقدمي لا ينفك في ازدياد وتصاعد، فان موضوع الوحدة العربية وخطوات تحقيقها، لم يعد قابلاً للغموض والالتباس، فالوحدة اصبحت بالبداهة مرادفة للتحرر لأن الاستعمار لا يخشى شيئاً كخشيتة لها، كما ان الوحدة اصبحت مرادفة للتقدمية في الداخل، لأن الرجعية التي تستسلم للاستعمار وتتحالف معه ضد مطالب الشعب الاجتماعية، لا تستطيع الا ان تكون مع الاستعمار ايضاً في مقاومته لتيار الوحدة.

ولئن كان ثمة من مثل يجسم هذه الحقيقة فانه يكون مثل لبنان. لقد ظل هذا القطر الى أمد قريب يمثل شذوذاً عن القاعدة لانه أكثر الاقطار العربية استمسكاً بالتجزئة، وهو في نفس الوقت قطر حريص على استقلاله متعلق بالحريات الديمقراطية، متطلع الى حياة اجتماعية تقدمية. وظل هذا الوهم قائماً حتى بلغت الحركة العربية نضجها الحالي وطريقها الذي تسير فيه أهداف الحرية والاشتراكية والوحدة في نضال متآلف متكامل، فاذا بالوهم يتبدد، واذا بحكام لبنان والطبقة المستغلة للتجزئة فيه لا تستطيع الدفاع عن هذه التجزئة إلا بالتخلي عن جميع المبررات وبمناقضة كل المدعيات التي كانت تستر بها. لقد تخلت عن استقلال لبنان وعن حرياته وتقدميته، وحكمته بالحديد والنار ونفوذ المال والاقطاع، واستعانت على ذلك بأبشع ما في الاقطار العربية الاخرى من رجعية وتخلف، وهكذا عاد لبنان ليؤيد القاعدة ويثبت كغيره، سواء بسواء، أنه حيث توجد التجزئة لا بد ان يوجد الاستعمار والاستبداد والرجعية.

وتمشياً مع هذا المنطق نفسه نقول: حيث توجد الرجعية وحيث يكون وضعها قوياً، لا بد ان يوجد الاستعمار، وان تستحكم التجزئة، فهذا العراق أول من حمل لواء الوحدة العربية، اوصلته طبقته الرجعية الى اخر درجات العزلة والانغلاق. كما فرضت رجعية النظام الملكي على الاردن نكسته الاخيرة بعد ان كادت وحدته تتحقق مع سورية ومصر. اما الرجعية السعودية فمعروف انها ليست مستعصية على الوحدة

فحسب، بل كانت ولا تزال تستخدم نفوذها ومواردها لمحاربة الوحدة في ارجاء الوطن العربي .
ويمكن القول بالمقابل ان توجه مصر الثورة نحو الوحدة العربية كان لا بد أن يحدث حتى قبل ان يتضح لحكامها كل الوضوح منذ الوقت الذي اطاحوا فيه بالملكية وأقصوا الرجعية السياسية والاجتماعية، ووقفوا من الاستعمار الموقف الجريء الحازم .

اذن فموضوع الوحدة، وهو حياة العرب وبقاؤهم، يجب ان ينقذ من جسيع ما يحيطه به ذوروا الاغراض والمصالح الخاصة من أوام ومغالطات وأضاليل لان في انقاده انقاداً لوجود العرب، فالوحدة ليست مطلباً معزولاً عن واقع الظروف والشروط السياسية والاجتماعية، بل هي تعبير عن هذه الظروف والشروط وجزء لا يتجزأ منها .
وليس يصح بعد الآن ان يقال : المهم ان تتحقق الوحدة وان تبدأ، وسيان أتحققت على يد هذا او ذاك أو بدأت من هنا أو من هناك، ففي الوضع الداخلي والخارجي الذي توجد فيه الامة العربية لا يمكن للوحدة غير طريق واحد هو طريق التحرر والتقدم والنضال السياسي والاجتماعي، اي طريق جماهير الشعب العربي . وكل انحراف عن هذا الطريق ليس هو انحرافاً بالوحدة عن الطريق السوي بل سد للطريق في وجه تحقيقها . والعرب اليوم ليسوا مخيرين بين وحدة شعبية تقدمية وبين وحدة تقوم على أيدي الملوك والاقطاعيين، بل هم مخيرون بين هذه الوحدة الشعبية التقدمية التي هي وحدها ممكنة التحقيق وبين بقاء التجزئة التي هي نفي لبقائهم .